

الباب الرابع والخمسون

فى أداء حقوق الصحبة والأخوة فى الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾^(١) وقال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾^(٢).

وقال فى وصف أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(٣).

وكل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للعباد على آداب حقوق الصحبة، فمن اختار صحبة أو أخوة فأذبه فى أول ذلك أن يسلم نفسه وصاحبه إلى الله تعالى بالمسألة والدعاء والتضرع، ويسأل البركة فى الصحبة، فإنه يفتح على نفسه بذلك إما باباً من أبواب الجنة، وإما باباً من أبواب النار، فإن كان الله تعالى يفتح بينهما خيراً فهو باب من أبواب الجنة. قال تعالى ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^(٤).

وقيل: إن أحد الأخوين فى الله تعالى يقال له: ادخل الجنة، فيسأل عن منزل أخيه، فإن كان دونه لم يدخل الجنة حتى يُعطى أخوه مثل منزلته. فإن قيل له: لم يكن يعمل مثل عملك. فيقول: إني كنت أعمل لى وله. فيعطى جميع ما يسأل لأخيه، ويرفع أخوه إلى درجته.

وإن فتح الله عليهما بالصحبة شراً، فهو باب من أبواب النار، قال الله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً﴾^(٥).

وإن كانت الآية قد وردت فى قصة مشهورة، ولكن الله تعالى نبه بذلك عباده على الحذر من كل خليل يقطع عن الله.

واختيار الصحبة والأخوة اتفاقاً من غير نية فى ذلك، وتثبت فى أول الأمر شأن أرباب الغفلة الجاهلين بالنيات والمقاصد، والمنافع والمضار.

(١) آية رقم ٢ من سورة المائدة.

(٢) آية رقم ١٧ من سورة البلد.

(٣) آية رقم ٢٩ من سورة الفتح.

(٤) آية رقم ٦٧ من سورة الزخرف.

(٥) آية رقم ٢٨ من سورة الفرقان.

وقد قال عبد الله بن عباس رضى الله عنه فى كلام له: وهل يفسد الناس إلا الناس؟! فالفساد بالصحة متوقع، والصالح متوقع، وما من هذه سبيله كيف لا يحذر فى أوله ويحكم الأمر فيه بكثرة اللجأ إلى الله تعالى، وصدق الاختيار وسؤال البركة، والخيرة فى ذلك وتقديم صلاة الاستخارة ثم إن اختيار الصحة والأخوة عمل، وكل عمل يحتاج إلى النية، وإلى حسن الخاتمة. وقد قال عليه الصلاة والسلام فى الخبر الطويل «سبعة يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله.. فمنهم: اثنان تحابا فى الله فعاشا على ذلك وماتا عليه» إشارة إلى أن الأخوة والصحة من شرطهما حسن الخاتمة حتى يكتب لهما شواب المؤاخاة، ومتى أفسد المؤاخاة بتضييع الحقوق فيها فسد العمل من الأول.

قيل: ما حسد الشيطان متعاونين على برِّ حسده متآخين فى الله، متحابين فيه؛ فإنه يجهد نفسه ويحث قبيله على إفساد ما بينهما.

وكان الفضيل يقول: إذا وقعت الغيبة ارتفعت الأخوة.

والأخوة فى الله تعالى مواجهة، قال الله ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾^(١) ومتى أضمر أحدهما للآخر سوءاً، أو كره منه شيئاً ولم ينبهه عليه حتى يزيله أو يتسبب إلى إزالته منه فما واجهه، بل استدبره.

قال الجنيد رحمه الله - ما تواخى اثنان فى الله، واستوحش أحدهما؛ إلا لعلّة فى أحدهما.

فالمؤاخاة فى الله أصفى من الماء الزلال. وما كان لله فالله مطالب بالصفاء فيه، وكل ما صفا دام. والأصل فى دوام صفائه عدن المخالفة، قال رسول الله ﷺ «لا تُمار أخاك، ولا تمازحه، ولا تعده وعداً فتخلفه»^(٢).

قال أبو سعيد الخراز: صحبت الصوفية خمسين سنة ما وقع بينى وبينهم خلاف، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: لأنى كنت معهم على نفسى.

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردى إجازة، قال: أخبرنا عمر بن أحمد الصفار، قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف قال: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى، قال: سمعت عبد الله الداراني يقول: سمعت أبا عمرو الدمشقي الرازى يقول: سمعت أبا عبد الله بن الجلاد يقول وقد سأله رجل: على أى شرط أصحاب الخلق؟

(١) آية رقم ٤٧ من سورة الحجر.

(٢) رواه البزار.

فقال: إن لم تبرهم فلا تؤذهم، وإن لم تسرهم فلا تسؤهم.

وبهذا الإسناد قال أبو عبد الله: لا تضيع حق أخيك بما بينك وبينه من المودة والصدقة، فإن الله تعالى فرض لكل مؤمن حقوقاً لم يضيعها إلا من لم يراع حقوق الله عليه.

ومن حقوق الصحبة: أنه إذا وقع فرقة ومباينة لا يذكر أخاه إلا بخير.

وقيل: كان لبعضهم زوجة، وكان يعلم منها ما يكره، فكان يقال له استخبأراً عن حالها، فيقول: لا ينبغي للرجل أن يقول في أهله إلا خيراً، ففارقها وطلقها، فاستخبر عن ذلك، فقال: امرأة بعدت عني، وليست مني في شيء، كيف أذكرها؟ وهذا من التخلق بأخلاق الله تعالى، إنه سبحانه يُظهر الجميل ويستر القبيح.

وإذا وجد من أحدهما ما يوجب التقاطع، فهل يُبغضه أم لا؟

اختلف القول في ذلك: كان أبو ذر يقول: إذا انقلب عما كان عليه أبغضه من حيث أحببته.

وقال غيره: لا يبغض الأخ بعد الصحبة، ولكن يبغض عمله، قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١) ولم يقل إنى برىء منكم.

وقيل: كان شاب يلزم مجالس أبي الدرداء، وكان أبو الدرداء يُميزه على غيره، فابتلى الشاب بكبيرة من الكبائر، وانتهى إلى أبي الدرداء ما كان منه، فقيل له: لو أبعدته وهجرته!!

فقال: سبحان الله، لا يُترك صاحب بشيء، كان منه.

قيل: الصداقة لُحمة كلُّمة النسب.

وقيل لحكيم مرة: أيما أحب إليك: أخوك أو صديقك؟ فقال:

إنما أحب أخى إذا كان صديقى.

وهذا الخلاف في المفارقة ظاهراً وباطناً، وأمَّا الملازمة باطناً إذا وقعت المباينة ظاهراً فتختلف باختلاف الأشخاص، ولا يطلق القول فيه إطلاقاً من غير تفصيل؛ فمن الناس من كان تغيره رجوعاً عن الله وظهور حكم سوء السابقة، فيجب بغضه، وموافقة الحق فيه.

(١) آية رقم ٢١٦ من سورة الشعراء.

ومن الناس مَنْ كان تغيّره عثرةً حدثت، وفترة وقعت يُرجى عودُه، فلا ينبغي أن يُبغض، ولكن يُبغض عمله في الحالة الحاضرة، ويُلاحظ بعين الودّ منتظراً له الفرج والعود إلى أوطان الصلح، فقد ورد أن النبي ﷺ، لما شتم القوم الرجل الذي أتى بفاحشة، قال: «مَه»، وزجرهم بقوله «ولا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم»^(١).

قال إبراهيم النخعي: لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب يُذنبه؛ فإنه يركبه اليوم ويتركه غداً.

وفي الخبر: «اتقوا زلّة العالم ولا تقطعوه، وانتظروا فيئته».

وروى أن عمر - رضى الله عنه - سأل عن أخ له كان آخاه، فخرج إلى الشام، فسأل عنه بعض من قدم عليه، فقال: ما فعل أخى؟ فقال له: ذاك أخو الشيطان. قال له: «مَه». قال له: إنه قارف الكبائر حتى وقع في الخمر. فقال: إذا أردت الخروج فأذنى. قال فكتب إليه ﴿حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم. غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب﴾^(٢) ثم عاتبه تحت ذلك.. وعذله، فلما قرأ الكتاب بكى فقال: صدق الله تعالى.. ونصح عمر، فتاب ورجع.

وروى أن رسول الله ﷺ رأى ابن عمر يلتفت يميناً وشمالاً، فسأله، فقال:

يا رسول الله، آخيتُ رجلاً، فأنا أطلبه ولا أراه. فقال «يا عبد الله إذا آخيت أحداً فسأله عن اسمه واسم أبيه، وعن منزله، فإن كان مريضاً عدته، وإن كان مشغولاً أعنته»^(٣).

وكان يقول ابن عباس، رضى الله عنهما: ما اختلف رجل إلى مجلسي ثلاثاً من غير حاجة تكون له فعلت ما مكافأته في الدنيا.

وكان يقول سعيد بن العاص: لجليسى على ثلاث: إذا دنا رحبت به، وإذا حدثت أقبلت عليه، وإذا جلس أوسعت له. وعلامة خلوص المحبة لله تعالى: أن لا يكون فيها شائبة حظٍ عاجل: من رفق، أو إحسان؛ فإن ما كان معلولاً يزول بزوال علته، ومن لا يستند في خلته إلى علة يُحكم بدوام خلته.

(١) رواه الديلمي.

(٢) آية ١، ٢، ٣ من سورة غافر.

(٣) رواه الطبرانى.

ومن شرط الحبّ في الله تعالى إيثار الأخ بكل ما يقدر عليه من أمر الدين والدنيا. قال تعالى: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^(١) فقولته تعالى: ﴿لَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أى: لا يحسدون إخوانهم على ما لهم. وهذان الوصفان بهما يكمل صفو المحبة، أحدهما: انتزاع الحسد على شيء من أمر الدين والدنيا.

والثاني: الإيثار بالمقدور. وفي الخير عن سيد البشر ﷺ: «المرء على دين خليله، ولا خير لك في صحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه».

وكان يقول أبو معاوية الأسود: إخواني كلهم خير مني. قيل: وكيف ذلك؟ قال: كلهم يرى لي الفضل عليه، ومن فضلني على نفسه فهو خير مني.

ولبعضهم نظماً:

تذلل لمن إن تذلت له	يرى ذاك للفضل لا للبله
وجانب صداقة من لم يزل	على الأصدقاء يرى الفضل له

(١) آية رقم ٩ من سورة الحشر.